ابن رشد وموقفه من الرحلة في طلب العلم والحج
[450-520هـ/1058-1126م]

أ:فيلالي بلقاسم. جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة:

كثيرا ما ترتبط الرحلة من حيث الإقبال عليها أو الإدبار، بأسباب خارجة عن نطاقها، فعلى الرغم من توفر القناعة بإلزام طلبة العلم بالارتحال في طلبه مشرقا ومغربا، وفتاوى العلماء التي تحث على ذلك كثيرة، بل قد تنتقص من لم يقوم بالرحلة، وتجعله غير مؤهل للفتوى أو الحكم أو القضاء و غيرها

ورغم أن الرحلة إلى الحج فريضة على المستطيع بنصوص الكتاب والسنة، وحث الكثير من العلماء في الفتاوى والقصائد الدينية على واجب الزيارة الدينية، ورغم المكانة التي يحظى بها الحاج في المجتمع الأندلسي، إلا أننا وجدنا أن هناك من كبار العلماء من لم يقم بهذا الواجب ولا أدى تلك الشعيرة الدينية، مثل شخصية الفقيه المالكي ابن رشد الجد.

وعليه يمكن طرح الإشكاليات التالية:

-ما هي المكانة التي حظي بها ابن رشد الجد في الأندلس، وكيف استطاع ذلك رغم عدم قيامه بأية رحلة في طلب العلم أو غيرها.

-ماهي أسباب عزوف ابن رشد عن الرحلة في طلب العلم، وهل توفر له في موطنه بقرطبة ما شغله عن الرحلة العلمية، وهل هناك رحلات وقعت في الفترة التي بلغ فيها ابن رشد سن الرحلة، وإن كانت فهل نجحت أم لا؟

-وماهي الظروف التي احتج بها ابن رشد عن عدم قيامه بالرحلة، رغم ما يوصف به عدم المرتحل من نقائص، وهل هناك رحلات وقعت في فترة بلوغ ابن الرشد سن الرحلة إلى الحج، وهل نجحت تلك الرحلات أم فشلت؟

أولا/ترجمة لشخصية ابن رشد الجد[450-520هـ/1058-1126م]

أ/اسمه ونسبه

أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد المالكي[1]، أول شخصية عرفت من العائلة، شخصية أحمد بن أحمد بن محمد بن رشد[2]، وهو والد القاضي أبي الوليد الجد، ووصف بأنه كان من أهل العلم والعدالة، كان حيا سنة 482هـ/، وهو بداية عهد المرابطين بالأندلس[3].

1- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي[450-520هـ/1058-1126م]، أنظر ترجمته في: ابن بشكوال أبي القاسم خلف ابن عبد الملك[494-578هـ]: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، نشر وتصحيح:عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1414هـ/ 1994م، ج2، 546، والقاضي عياض أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي[476-544هـ/1083-1149م]: الغنية، (فهرست شيوخ القاضي عياض)تح: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ص54، النباهي أبو الحسن بن عبد الله المالقي[713-بعد

وربما اشتهر أحمد هذا بشهرة ابنه الفقيه المالكي المشهور بابن رشد الجد[450-520هـ]، ثم ازدادت أسرة ابن رشد شهرة بابن رشد الحفيد[4] [520-595هـ]بعد ذلك، أما قبلهما فلا توفر المصادر شيئا يذكر عن نسب عائلة ابن رشد في العرب أم في العجم، ولعل أوضح إشارة إلى ذلك، تعيير ابن رشد الحفيد[520-595هـ] أثناء المحنة بنسبه، حين نفي سنة 593هـ إلى اليسَّانة مدينة اليهود[5]، فقالوا إن ذلك كان عملا بقول من قال أنه ينتسب في بني إسرائيل، وأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس، وهذا ما يؤكد الجهل التام والغموض المتعلق

792هـ/1313-1389م]: كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا [تاريخ قضاة الأندلس] دار الطباعة والنشر والتوزيع بيروت، بلا:تا، ص: 99، ابن عذاري المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد توفى في النصف الأول من القرن 7هـ(حيا سنة 712هـ/1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تح : ح،س، كولان، وإ، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، بلا:تا، ج1، ص310، ابن سعيد علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك [610-685هـ/1213-1286م]: المغرب في حلي المغرب، تح: شوقي ضيف، مصر،ط4، ج1، ص105، و ابن عبد الملك المراكشي أبو عبد الله محمد بن محمد: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: محمد بن شريفة، دار الثقافة بيروت، بلا: تا، السفر الأول، القسم الثاني، ص440، ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ذي الوزارتين (لسان الدين) [677-713هـ/1277-1313م]: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، 1329هـ/1911م،ص90، ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي[710أو720هـ/1310أو1320م]: كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1972م،ص164، وابن العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد ت1089هـ:شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي-بيروت-، بلا:تا، المجلد الثاني، ج4، ص62، محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت، ط11، بلا:تا محمد بن ، ص129.

2- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الثاني، ص440

3- عمر بن حمادي: الفقهاء في عصر المرابطين، رسالة ماجستير (شهادة التعمق في البحث)، تاريخ وسيط، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، سنة 1987م ص282 .

4- ابن رشد أبو الوليد محمد بن أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد[520-595هـ]، أنظر ترجمته في: ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، 554، و ابن الأبار أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي: التكملة لكتاب الصلة، تح: عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة بمصر، 1375هـ/1955م، ج2، ص554، وابن سعيد: المغرب، ج1، ص104، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح:محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع 1414هـ/1994م، ص203-204 ، وابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر6، ص21-29 ، ومحمد بن محمد مخلوف:شجرة النور، ص146

5- اليسَّانة: مدينة قريبة من قرطبة، مشتهرة بسكنى اليهود إياها، ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر6، ص27.

بنسب هذه العائلة[6]، وزادها غموضا عدم رد ابن رشد الحفيد[520-595هـ] على خصومه بإثبات نسه في أي مؤلف من مؤلفاته على كثرتها.

وكل ما ذكر في نسب العائلة، يذكر أيضا عن المكان الذي كانت تسكنه قبل استقرارها واشتهارها بقرطبة، ماعدا إشارة بسيطة إلى أن أصل العائلة كان من سرقسطة[7]، مع عدم توضيح أسباب وظروف انتقال العائلة إلى قرطبة[8] واستقرارهم واشتهارهم بها.

ب/مولده ونشأته

وولد بقرطبة عام 450هـ/1048م، وبها نشأ وتعلم على يد أعلام علماء الأندلس، وعاش في القرن 5هـ/11م، في أكبر مركز ثقافي مزدهر في الأندلس[9] ولا يذكر له خروج من قرطبة، وبها تكون، ورابط في كتابها ومساجدها، إلى أن تخرج منها وحدها فقط، وصار عالما تشد إليه الرحال، ولما اشتغل تولى أعلى المناصب فيها، وكان من أوفى الناس لمدينته وبلدته، ولم يغادر قرطبة بحال، ولم تسجل له رحلة تذكر في طلب العلم خارجها، وذلك لما توفر له من فرص بها، فهي لا تزال حاضرة الأندلس ودار علم، يقصدها الطلبة، فكيف يترك هذا الجو ويخرج عنه لغيره، أما خروجه إلى مراكش فكان سنة 519هـ، قبل سنة من وفاته، ولم يدخل مراكش متعلما، بل موجها ومستشارا ومشاورا ومشيرا على أمير المسلمين[10] بأمور الرعية وما يصلحها وما ينفعها، ومسديا له مختلف النصائح في السياسية

6- عمر بن حمادي: الفقهاء في عصر المرابطين، ص282

7- ابن بشكوال:كتاب الصلة، ص554

8- عمر بن حمادي:الفقهاء في عصر المرابطين، ص282

9- ابن رشد محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله[450-520هـ]: البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تح:محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ج1،ص 13، أبو الحسن النباهي:تاريخ قضاة الأندلس، ص99)، ومحمد مخلوف:شجرة النور الزكية، ص129

10- أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، كان فقيها حسن السيرة نزيه النفس بعيدا عن الظلم، يعد في الزهاد والمتبتلين، أخذت له البيعة سنة 496هـ، وجددت له بعد وفاة أبيه بمراكش سنة 500هـ وسنه 23 سنة ، وملك جميع بلاد المغرب من بجاية إلى السوس الأقصى وبلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان، وجميع بلاد الأندلس وملك الجزائر الشرقية وميروقة ويابسة، مهد له والده الحكم فوجد البلاد هادنة، والأموال وافدة والملك قد توطد، وكان رجلا حليما وقورا صالحا منقادا للحق والعلماء، وأقام بالعدل وتولى الجهاد، وسرح السجون وفرق الأموال وسار سيرة أبيه، توفى في شهور سنة 537هـ، ومولده سنة 476هـ، عبد الواحد المراكشي المعجب، ص: 149-150، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 156-157،165، ابن الخطيب الحلل الموشية، ص: 85، =وابن أبي دينار المؤنس، ص: 99، والنويري نهاية الأرب، ص: 391، وابن خلكان: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان[608-681هـ/1211-1282م]: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار البصائر بيروت، بلا:تا، ج7، ص: 123-125، رقم: 844

وغيرها[11].

ج/ صفاته وأخلاقه

نعتمد في دراسة الجانب الخلقي والإنساني في شخصيته،على ما نقل من أوصافه في كتب التراجم، ومنهم القاضي عياض الذي وصفه بقوله:حسن الدين كثير الحياء، قليل الكلام متسمتا نزيها[12]، وقال ابن بشكوال:من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت الحسن، والهدى الصالح، كان يصوم يوم الجمعة في الحضر والسفر،...تقلد قضاء قرطبة وسار فيه بأحسن سيرة، وأقوم طريقة، وكان حسن الخلق سهل اللقاء كثير النفع لخاصته وأصحابه، جميل العشرة لهم، حافظا لعهدهم كثيرا لبرهم[13] وقال النباهي في حقه: فاضلا دينا[14]، وقال محمد مخلوف:فاضلا دينا إليه الرحلة[15]، فقد أجمع كل من ترجموا له على أنه: كان ناسكا عفيفا كريم الخلق، سهل الحجاب، كما كان أستاذا بطبعه يحب التدريس، ويحسن طرق التبليغ، تسعفه مادة غزيرة وتفكير منظم وعبارة منطلقة، وحرص على نفع الطلبة[16].

فالرجل كان مخلصا للأمة كلها نصوحا للراعي والرعية، مشاركا في كل مشاريع الخير التي يمكنه المشاركة فيها، أمينا على كل ما استأمن عليه، متدينا لا يرى صدور فعل أو نهي إلا بموافقة الشرع، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكل هذا في حق رجل مثله قليل.

د/ عائلة ابن رشد ومكانتها في قرطبة

البروز الحقيقي لهذه العائلة كان في العهد المرابطي، مع بروز شخصية أبي الوليد بن رشد الجد[450-520هـ]، الذي كان من كبار فقهاء العصر علما ومكانة، وأحد أقطاب المذهب المالكي عامة، وقد تولى قضاء الجماعة بقرطبة في الفترة المنحصرة بين [511-515هـ]، وأصبح منذ وفاة أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن حمدين[17] سنة 508هـ، زعيم قرطبة والمتكلم باسمها، ومن كبار الفقهاء الذين تستشيرهم الدولة[18]، ثم دخلت

11- في سنة 519هـ، جاز إلى مراكش، وأشار على أمير المسلمين ببناء سور مراكش، لتحصيها لما ظهر أمر المهدي، توفى سنة 520هـ ومولده سنة 450هـ، أبو الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص: 99، ابن عذارى، البيان المغرب، ج1، 310، ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص: 90 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 164.

12- الغنية، ص54

13- ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص546

14- تاريخ قضاة الأندلس، ص99

15- شجرة النور، ص129

16- ابن رشد:البيان والتحصيل، ج1، ص14

17- أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن حمدين الثغلبي[439-508هـ/1047-1114م]، أنظر ترجمته في:ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص539-540

18- عمر بن حمادي:الفقهاء في عصر المرابطين، ص282-283

عائلة ابن رشد كمنافس ثالث على منصب القضاء، إلى جانب عائلة بني حمدين وعائلة بني الحاج[19]، وتولى القضاء من العائلة أيضا في قرطبة، ابنه أبو العباس أحمد بن أبي الوليد بن رشد[20] [487-563هـ]بين [532-535هـ][21]، ثم استمرت شهرت العائلة وسيطرتها على قضاء قرطبة في عهد الموحدين عندما تولى ابن رشد الحفيد[520-595هـ]قضاء الجماعة بقرطبة[22]، وكذلك تولى منهم القضاء خارج قرطبة أبو القاسم أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد[622هـ][23]، فنالت عائلتهم مكانة اجتماعية وسياسية وعلمية[24]، فكانت عائلة ذات جاه وسطوة وشهرة ومكانة رفيعة بتوليها لمنصب قضاء الجماعة بقرطبة حاضرة الدولة الأموية والأندلس في عهد المرابطين، وكان لقاضي الجماعة بقرطبة دورا هاما في كل الأحداث الجارية بها، ومن ثم ذكر بأن الفتنة الحاصلة في الأندلس أواخر سنة 514هـ بداية 515هـ، هي التي حملته على التنازل عن القضاء وطلب الاستعفاء، حيث أنه ركب في أعلام الفقهاء فردع العامة وقمع السفلة،

كما تزعم المفاوضات مع وفد فقهاء المدينة[25]، مما يثبت المكانة الدينية والسياسية التي تحظى بها عائلة ابن رشد ومن ثم الدور الذي تؤديه والنشاط الذي الديني والاجتماعي والسياسي الذي تمارسه، فهذا ابن رشد الجد مسموع الكلمة مجاب الطلب مطاع الرأي حتى عند الأمراء كان يحتل مكانة هامة عند الأمراء، مقدما عند أمير المسلمين، عظيم المنزلة، معتمدا في العظائم أيام حياته[26]، في سنة 519هـ، جاز إلى مراكش، للاطلاع على أحوالها، وأشار على أمير المسلمين ببناء سور مراكش، لتحصيها لما ظهر أمر المهدي[27]، كما ووصف ابن رشد الحفيد بأنه:نشأ في بيت فقهاء وقضاة، وكانت أسرته من أكبر الأسر وأشهرها في الأندلس، وآباؤه من أئمة المذهب المالكي، وكان هو وأبوه وجده قضاة قرطبة، وانفرد حينا بقضاء إشبيلية[28].

هـ/زواجه

19- المصدر نفسه، ص279

20- أبو العباس أحمد بن أبي الوليد بن رشد[487-563هـ]، أنظر ترجمته في: محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، رقم438، ص146

21- عمر بن حمادي:الفقهاء في عصر المرابطين، ص283

22- ابن عبد الملك المراكشي:الذيل والتكملة، السفر6، ص25

23- ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ص150، ترجمة رقم287.

24- عمر بن حمادي:الفقهاء في عصر المرابطين، ص281

25- عمر بن حمادي:الفقهاء في عصر المرابطين، ص594

26- ابن رشد محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله[450-520هـ]: فتاوى ابن رشد، تح:مختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، السفر الأول، ج1، ص8

27- أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص: 99، ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، 310، ابن الخطيب:الحلل الموشية، ص: 90 ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص: 164

28- محمد لطفي جمعة: ابن رشد تاريخه وفلسفته، منشورات دار المعارف، سوسة تونس، 1996م، ص9

لا تذكر لنا الروايات شيئا [فيما توفر لنا من مصادر]، عن هذا الجانب من حياة ابن رشد الجد الشخصية، رغم أنه تزوج وأنجب، وربما انشغاله أيضا بأموره الأسرية إلى جانب طول مدة تتلمذه، هو الذي أخر شهرته إلى ما بعد الخمسمائة[500هـ].

ولعل ترجمة ابنه وتلميذه أبا العباس أحمد بن أبي الوليد بن رشد[467-563هـ][29]، تقرب لنا فهم هذا الجزء من حياته العائلية المستقرة، فمولد ابنه أبا العباس كان سنة 467هـ، بمعنى أنه رزق بهذا المولود وعمره سبعة عشر[17] سنة، وهو سن مناسب للزواج المبكر في العصر الذي عاش فيه، وربما يكون ولده البكر أو الوحيد، لأننا لم نقف بعد على ترجمة وافية لأبناء آخرين له، أو حتى لبناته، ولم نجد ذكرا لأحد من أصهاره رغم شهرته وشهرة أسرته، فهل يمكن أن تكون له بنات لم يتزوجن، وقد يعود هذا الغموض إلى اعتبار هذه الأمور تتعلق بالأعراض الواجب الإعراض عن الخوض فيها، وعدم التعرض لها، فما ينبغي لنا أن نطيل الكلام فيما أعرض الناس عنه.

و/وفاته

قال القاضي عياض:توفي رحمه الله ليلة الأحد 11 من ذي القعدة سنة 520هـ[30]، وذكره ابن العماد في وفيات سنة 520هـ، وقال:عاش سبعين سنة[31]، وقال النباهي:توفي سنة 520هـ[32]، ونقل عنهم محمد مخلوف: محددا الشهر الذي توفي فيه، فقال: توفي في ذي القعدة 520هـ[33].

لقد عاش ابن رشد أول مدة من حياته، مشمرا في طلب العلم جاد في تحصيله، ولذلك استغرقت هذه المرحلة الكثير من وقته، وكانت على حساب المرحلة المتبقية، وهي مرحلة العطاء والبذل والتي
لاتصل إلى مستوي الثلث من حياته الأخرى

ثانيا:ابن رشد وعزوفه عن الرحلة في طلب العلم

أ/أسباب عزوفه عن الرحلة في طلب العلم

لا تذكر المصادر التي ترجمة لابن رشد أي رحلة في طلب العلم أو الحج، ولذلك أردنا نوسع النظر في أسباب عدم قيامه بالرحلة، بحثا عن مختلف الأوضاع السائدة في المشرق والمغرب، لعلنا نقف له على سبب مقنع، ودراسة للرحلات التي وقعت في الفترة التي بلغ فيها ابن رشد سن الرحلة ولم يرتحل.

أما الفقيه العالم أبا بكر بن العربي [468-543هـ][34]، الذي كان على خلاف شديد مع فقهاء الفروع، وخاصة من تولى منهم القضاء فقال في حقهم (كثرت البدع وتسربت المبتدعة بالشريعة فتعاطت منصب

29- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، رقم438، ص146

30- الغنية ، ص55

31- شذرات الذهب، ج4، ص62

32- تاريخ قضاة الأندلس، ص99

33- شجرة النور، ص129

القضاء)[35]، فوقع له الصدام معهم، ولذلك وقعت بينه وبينهم الوحشة، وصاروا يكيدون له، ويمنعون الطلبة ويصدونهم عن الأخذ عنه مثل (عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي[511-597هـ/1117-1200م] (دخل الأندلس في آخر المدة اللمتونية، ولقي أبا بكر بن العربي بإشبيلية، وهم بالسماع منه، فصده الفقهاء عنه – للتباعد الذي كان بينهم– وأحالوه على أبي بكر بن طاهر...)[36].

ولذلك نراه يدم بطريقة غير مباشرة أمثال هؤلاء الفقهاء القضاة، الذين صاروا يتحكمون في رقاب الناس، ويصفهم بقلة العلم، معرضا في كلامه بكل من لم تكن له رحلة في طلب العلم فقال: ولولا أن الله من بطائفة تفرقت في ديار العلم، وجاءت بلباب منه كالقاضي أبي الوليد الباجي[37] وأبي محمد الأصيلي[38]، فرشّوا من ماء

34- أبو بكر ابن العربي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري[468-543هـ]من إشبيلية، قال ابن بشكوال: الإمام العالم الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها، لقيته بمدينة إشبيلية حرسها الله سنة516هـ، فأخبرني رحمه الله أنه رحل مع أبيه إلى المشرق سنة485هـ، ...ثم عاد إلى الأندلس سنة493هـ، وقدم بلده إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله، واستقضى ببلده فنفع الله به أهله لصرامته وشدته، ونفوذ أحكامه، وكان له في الظالمين سورة مرهوبة، ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه، قرأت عليه وسمعت بإشبيلية وقرطبة كثيرا من روايته وتواليفه، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، رقم1297، ص558-559، الضبي أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة[599هـ]بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تح:روحية عبد الرحمان السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص80-84، المغرب،ص254 وفيات الأعيان،ج4، ص296، ومحمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، رقم408، ص136.

35- أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي: العواصم من القواصم، تح: عبد الحميد بن باديس، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، ط1، 1347هـ/1928م، ج2، ص205

36- عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي[511-597هـ/1117-1200م] من أهل فاس، ابن الأبار: التكملة، ج2، ص921

37- أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف بن سعدون بن أيوب بن وارث[403- 474هـ/1012-1081م]، كانت رحلته إلى المشرق سنة 426هـ/1034م، وحج أربع حجج، وأقام بمكة أربعة أعوام مع أبي ذر الهروي، وأكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب، إمّا رواية الباجي عن أبي ذر بسنده، وإمّا رواية أبي علي الصدفي بسنده، وأقام ببغداد ثلاثة أعوام يدرس ويقرئ الحديث، بينه وبين ابن حزم الظاهري مناظرات، أنظر ترجمته في: القاضي عياض أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي [476-544هـ/1083م- 1149م]: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، بلا:تا، المجلد الثاني، ج4، ص802، و ابن فرحون: الديباج المذهب، ص197، رقم:240، ومحمد بن محمد مخلوف: شجرة النور، ص120.

38- أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي [392هـ] قرطبي أصله من كورة شذونة ورحل به أبوه إلى أصيلا من بلاد العدوة فسكنها ونشأ بها، طلب العلم بالآفاق، وتفقه بقرطبة منذ صباه بشيخها اللؤلؤي،..ثم رحل إلى المشرق فلقي شيوخ إفريقية،... ولقي بمصر القاضي أبا الطاهر البغدادي،...وحج ولقي بمكة سنة 353هـ أبا زيد المروزي وسمع منه البخاري، وأبا بكر الآجري، وبالمدينة قاضيها أبا مروان المالكي، وسار إلى العراق، فلقي بها الأبهري رئيس المالكية، واضطرب في المشرق نحو ثلاث عشر عاما، ثم انصرف إلى الأندلس،... وإليه انتهت

العلم على هذه القلوب الميتة، وعطروا أنفاس الأمة الذفرة، لكان الدين قد ذهب، ولكن تدارك الباري تعالى بقدرته ضرر هؤلاء بنفع هؤلاء[39]...

وهذا التعيير للفقهاء القضاة[40] خاصة منهم، يشمل ابن رشد وغيره من الفقهاء والقضاة الذين تولوا الخطط ولم تثبت لهم رحلة ولا مشقة في طلب العلم، وهم في الحقيقة كثير في هذه الفترة نركز الذكر منهم على القرطبيين من طبقة ابن رشد.

حقيقة ووجد من أهل قرطبة ممن لم يرتحل في طلب عدد ليس باليسير منهم: القاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين [439-508هـ/1047-1114م][41] تولى قضاء قرطبة مند سنة 490هـ/ 1096م إلى وفاته، وكان محل ريبة وشك عند البعض[42]، ولم تذكر له رحلة في أي اتجاه، ومن أمثاله الكثير[43]، أما عن هذه الظاهرة الجديدة

الرئاسة بالأندلس في المالكية..وولي قضاء سرقسطة وقام بالشورى بقرطبة حتى كان نظير ابن أبي زيد بالقيروان وعلى هديه، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص224-225، رقم:273 كانت الرحلة إليه، رحل إليه من بلاد المغرب الفقيه أبا عمران الفاسي موسى بن أبي حجاج الغفجومي الفاسي[368-430هـ]، القاضي عياض: ترتيب المدارك، المجلد الثاني، ج4، ص616، و702-704، وابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص577-578، رقم1337.

39- العواصم من القواصم، ج2، ص198، الحجوي محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي[1291-1376هـ/1874-1957م]:الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة العصرية صيدا -تبيروت .،ط1، 2006/1427م، ص514

40- لعل المكانة التي حضي بها القضاة جعلت منهم محل نقمة العامة والخاصة، وخاصة ما توصل إليه القضاة لما انقضت دولة الملثمة بالأندلس (تأمرت القضاة في بلادها شرقا وغربا)، ابن الأبار: التكملة، ج1، ص276.

41- القاضي أبو عبد الله محمد بن حمدين [439-508هـ/1047-1114م][77] قاضي قرطبة مند سنة490هـ/ 1096م إلى وفاته،... كان من أهل التفنن في العلوم، أديبا شاعرا لغويا أصوليا، ولي القضاء بقرطبة في شعبان 490هـ، توفى سنة 508هـ، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص539-540.

42- قال فيه الشاعر أبا جعفر محمد المعروف بابن البني، من أهل مدينة جيان، معرضا به:

أهلُ الرياءِ لبستم ناموسَكم كالذئبِ أدلجَ في الظلامِ العاتمِ/فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال بابن القاسمِ=

=وركبتم شهاب الدواب بأشهب ويأصبغ صبغت لكم في العالم، عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص150

43- منهم: أبو محمد عبد الرحمان بن محمد ابن عتاب الأموي[433-528هـ]، قرطبي، تفقه عند أبيه وشوور في الأحكام بعده بقية عمره،... كانت الرحلة إليه من الآفاق، وألحق الأبناء بالآباء، وانتفع الناس به، له [تآليف حسنة وفهرسة] قال أبو محمد عبد الحق: عليه كانت تدور الفتيا ببلده،...[لقيته بقرطبة وقرأت عليه كتاب الموطأ رواية يحي بن يحي]...وأجاز لي جميع ما رواه عن شيوخه المسمين في فهرسته، مولده سنة 433هـ، وتوفي سنة 528هـ، فهرس ابن عطية، ص106، الصلة،ج1، ص332، رقم:747قضاة الأندلس، ص99،شجرة النور،ص 129،... وأبو الحسن بن مغيث يونس ابن محمد بن مغيث[447-532هـ]، من أهل قرطبة، وشيخها المعظم فيهم... مشاورا في الأحكام، ابن بشكوال: كتاب الصلة،ج2، ص649، رقم:1518شجرة النور، ص132...والقاضي أبي عبد الله بن الحاج محمد بن أحمد بن بيطير التجيبي458-529هـ من أهل قرطبة تولى قضائها مرتين،... كان يدور القضاء في وقته بينه وبين أبي الوليد بن رشد في خلافة يوسف بن تاشفين وابنه، ألف:[النوازل المشهورة] و[شرح خطبة صحيح مسلم] و[كتاب الإيمان] و[الكافي في بيان العلم] و[فهرسة] وغير ذلك، بقي يتولى القضاء بقرطبة حتى قتل ظلما بالمسجد الجامع بقرطبة يقوم الجمعة وهو ساجد، سنة 529هـ، ودفن بمقبرة أم سلمة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، وشهده جمع عظيم من الناس واتبعوه ثناء

في قرطبة، والمتمثلة في عزوف طلبتها عن الرحلة في طلب العلم أو الحج، فإن لذلك أسبابا واقعية، فالنسبة للرحلة في طلب العلم، فإن ابن رشد كان في قرطبة وتوفر له من العلماء بها ما جعلها مركز علمي تشد إليه الرحال من المشرق والمغرب، وقد تحققت هذه المكانة لمدينتين فقط في الأندلس، فقرطبة كانت تحتوي على عدد هام من الأساتذة، والمرية كانت مركز عبور لعدد من الشيوخ، ثم ميزة خاصة بشيوخ قرطبة أنهم أكثر الفقهاء اشتغالا في مدنهم وأقلهم مغادرة لها[44]، فتهيأ له اللقاء بعدد هام من الشيوخ هناك، وأغناه ذلك عن مشقة القيام بالرحلة، وهو ما يتهيأ لعدد كبير من فقهاء قرطبة، في تلك الفترة ويؤكد هذا الكلام طبقة ابن رشد ونظرائه ممن تولوا أرقى المناصب، ولمع نجمهم من دون أن تكون لهم رحلة تذكر، وهذا بسبب ما توفر لهم من فرص التكوين والتعلم بقرطبة، فاكتفوا بالأخذ عن علمائها، وتولوا الوظائف والخطط بها، ونلاحظ أن هؤلاء الفقهاء من نظراء ابن رشد وطبقته معظمهم تكون عند نفس شيوخه[45]، سواء كان من أهل الأندلس أو ممن ارتحل إليها من المشرق والمغرب، قبل سنة 498هـ، لأن آخر شيوخه وفاة هو محدث الأندلس أبا علي الجياني المتوفى سنة 498هـ.

ب/قرطبة قبلة المشارقة والمغاربة في رحلاتهم

ولذلك نجد طلبة العلم وغيرهم، أصبحوا يقصدون قرطبة من المشرق نفسه، الذي كان محط رحال القرطبيين والأندلسيين عموما من قبل، فأصبحت قرطبة وبلاد الأندلس تستقطب إليها المشارقة، ومنهم أبا الحسن بن الخشاب المبارك بن سعيد[490هـ]من بغداد، ودخل الأندلس تاجرا سنة 483هـ، فأسمع بقرطبة وأخذ عنه الجياني، وسمع هو من أبي مروان بن سراج كتاب النواذر لأبي علي البغدادي، وسمع بالمرية كتاب أحكام القرآن للقاضي إسماعيل، وعاد إلى بغداد[46].

واضح تماما أن رحلة ابن الخشاب لم تكن في طلب العلم خالصة، بل قدم تاجرا، ولكنه وجد ضالته في كل من قرطبة والمرية، فانتفع واستزاد من العلم، ولو توفرت فرصة لأي مشرقي مثله لفعل مثل فعله، للاعتبارات

حسنا، ومولده سنة 458هـ. الصلة،ج2، ص550، تاريخ قضاة الأندلس، ص 102، شجرة النور، ص132...وأمثالهم ممن تولوا الخطط أو لم يتولوا أي خطة كثير.

44- عمر بن حمادي: الفقهاء، ص237-238

45- وخاصة القاضي ابن حمدين[439-508هـ]يشاركه في الأخذ إجازة عن أبي العباس العذري، وأبا الحسن بن مغيث[447-532]يشاركه في معظم شيوخه وخاصة أبا مروان بن سراج وأبا جعفر بن رزق، وأبا عبد الله بن فرج بن الطلاع، وأبي علي الغساني، بينما يشاركه كل من ابن الخشاب البغدادي [490هـ]، و أبو بكر المرادي [489هـ]القرواني في شيخه أبي مروان بن سراج، ويشاركه القاضي ابن الملجوم الفاسي[476-543هـ]في شيخيه أبي علي الغساني، وابن فرج ابن الطلاع

46- أبو الحسن بن الخشاب المبارك بن سعيد بن محمد بن الحسن البغدادي [490هـ]، وكان من أهل الثقة والصدق والثروة، ثم قفل من الأندلس وانصرف إلى بغداد إلى أن توفى بها بعد 490هـ، ابن بشكوال: كتاب الصلة،ج2، ص599، رقم:1391، وأبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن عبد الله الربعي المقدسي الشافعي التاجر[531هـ] سكن المرية، له سماع من أبي بكر الخطيب، ومن نصر= =بن إبراهيم المقدسي، ودرس على أبي إسحاق الشيرازي، حدث عنه القاضي عياض، توفى سنة 531هـ، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص410، رقم:927.

السالفة الذكر، فإن هاتين المديتين صارتا مركزا علميا بلا منازع، رغم من دخلها من أهل المشرق على قلتهم، بل إن رحلة أهل المغرب أصبحت تبدأ بالأندلس أولا[47] ثم المشرق، في هذه الفترة أو قبلها.

وقد دخلها من أهل المغرب عدد ليس باليسير، نذكر منهم من قصد قرطبة بالضبط، أبا بكر المرادي محمد بن الحسن [489هـ]من القيروان، قدم الأندلس وأخذ عنه أهلها، كان إمام في أصول الدين وله فيه تواليف حسنة مفيدة، قال أبو العباس الكناني:دخل قرطبة في سنة 487هـ، واختلف إلى أبي مروان ابن سراج في سماع التبصرة لمكي[48]، وقد دخل قرطبة في نفس السنة التي توفى فيها ابن أبي العافية[487هـ] شيخ ابن رشد.

أما القاضي أبا موسى بن الملجوم عيسى بن يوسف بن عيسى الأزدي [476-543هـ]من أهل فاس وتولى القضاء بها، رحل إلى قرطبة عام 495هـ، فأخذ بها عن أبي علي الغساني[498هـ]، وأبي عبد الله ابن فرج ابن الطلاع[497هـ]، وأبي بكر ابن حازم[49]، قال ابن الأبار: دخل الأندلس فلقي بقرطبة سنة 495هـ أبا عبد الله بن الطلاع وأبا بكر بكر حازم بن محمد، وأبا علي الغساني وأبا الحسين بن سراج وأبا محمد بن عتاب، وسمع منهم ومن غيرهم[50]، وأدرك من شيوخ ابن رشد من تأخرت وافتهم بعد 495هـ، وهي السنة التي توفى فيها ابن مدير[495هـ]فلم يأخذ عنه.

أما أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي[428-505هـ]، دخل الأندلس طالبا للعلم، فسمع من أبي عبد الله بن المرابط، وأبي مروان بن سراج[489هـ] وغيرهما،..وتفقه على القاضي ابن المرابط، وأبي علي

47- كرحلة أبا عمران الفاسي موسى بن أبي حجاج الغفجومي الفاسي[368-430هـ]، قدم الأندلس فسمع بقرطبة من أبي محمد الأصيلي، وتفقه به ثم رحل إلى المشرق وحج حججا، ودخل العراق سنة 399هـ، القاضي عياض: ترتيب المدارك، المجلد الثاني، ج4، ص616، و702-704، وابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص577-578، رقم1337.

48- أبو بكر المرادي محمد بن الحسن [489هـ]من القيروان،قال أبو العباسي الكناني:دخل قرطبة في سنة 487هـ، واختلف إلى أبي مروان بن سراج في سماع التبصرة لمكي، قال ابن بشكوال:حدثني مشافهة بكتاب فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي، توفى بمدينة أزكد بصحراء المغرب وهو قاض بها سنة 489هـ، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص572، رقم 1326.

49- أبو موسى بن الملجوم عيسى بن يوسف بن عيسى الأزدي ت543هـ... كر راجعا إلى بلده فاس فولي القضاء به، وكان فقيها نزيها، عدلا، توفى سنة 543هـ. تاريخ قضاة الأندلس،ص102، كما دخل الأندلس أبا الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ المصري القيرواني[488هـ]،شاعر أديب، دخل الأندلس ولقي ملوكها، وشعره كثير وأدبه موفور، كان عالما بالقراءات وطرقها، وأقرأ الناس بالقرآن بسبتة وغيرها، له قصيدة نظمها في قراءة نافع، وهي مائة بيت وتسعة أبيات، قال أبو القاسم بن صواب لقيته بمرسية سنة 481هـ، وتوفى بطنجة سنة 488هـ، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص410، رقم:926.

50- التكملة لكتاب الصلة، دار الفكر بيروت، 1415هـ/1995م، ج4، ص16

الجياني[498هـ] ومحمد بن فرج مولى ابن الطلاع[497هـ] وغيرهم[51]، فحتى يدرك ابن سراج لابد أن يكون دخوله قرطبة على الأقل، أول سنة 489هـ التي توفى فيها.

وأما القاضي أبا عبد الله محمد بن داود بن عطية بن سعيد العكي الجراوي[525هـ]، أصله من إفريقية واستوطن أبوه القلعة، روى عن عبد الجليل الربعي وغيره، ولقي بقرطبة أبا علي الغساني، فأخذ عنه كثيرا،...له مسائل منثورة وقد حدّث[52]، فإن نص الترجمة يدل على أنه ارتحل إلى قرطبة قبل وفاة أبي علي الجياني [498هـ]، وحتى يأخذ عنه كثيرا، لابد أن يدرك من شيوخ ابن رشد أيضا، ابن فرج ابن الطلاع[497هـ]، إلا أن يكون قد انشغل عنه بالرواية عن الجياني.

أما آخر من نذكر من الداخلين إلى قرطبة، ولم يدرك أحدا من شيوخ ابن رشد، فهو ابن تومرت محمد المهدي بن عبد الله [473-524هـ/1080-1129م] [53] من أهل السوس الأقصى، رحل في طلب العلم حوالي سنة 499هـ/1105م، ودخل قرطبة وهي دار علم[54]، فأخذ بها عن القاضي ابن حمدين[439-508هـ/1047-1114م][55]، ثم اتجه منها إلى المرية[56]، وركب البحر إلى المهدية، وأخذ عن الإمام المازري[57] [536هـ/1141م][58].

ج/قرطبة مقر استقرار علماء الأندلس بعد نهاية رحلاتهم

51- أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي[428-505هـ]...أخذ عنه القاضي عياض وعليه اعتماده، تولى قضاء سبتة وفاس، ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص572، رقم 1327

52- القاضي أبا عبد الله محمد بن داود بن عطية بن سعيد العكي الجراوي[525هـ] استقضي بتلمسان ثم بإشبيلية ثم بفاس، توفى يوم الإثنين 10 ذي القعدة سنة 525هـ، ودفن ضحوة يوم الثلاثاء بعده، وهو في عشر الثمانين، ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص573، رقم:1329.

53- ابن تومرت محمد المهدي بن عبد الله [473-524هـ/1080-1129م]من أهل السوس الأقصى، ابن عذارى:البيان المغرب، ج1، ص435، والزركشي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن لؤلؤ [بعد932هـ/1525م]: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العقبية، تونس، ط2، 1966م، ص4، ومحمد بن محمد مخلوف:شجرة النور، ص140، وممن رحل إلى الأندلس من أهل المغرب، ولم يذكر له دخول إلى قرطبة، أبا الحسن علي بن عبد الغني القيرواني المقرئ[488هـ]، أقرأ بسبتة وتوفى بطنجة، دخل الأندلس ولقي ملوكها، قال أبو القاسم بن صواب:لقيته بمرسية سنة 481هـ، كان عالما بالقراءات وطرقها وأقرأ الناس القرآن بسبتة وغيرها، له قصيدة نظمها في قراءة نافع وهي مائتا بيت وتسعة أبيات، توفى بطنجة سنة 488هـ، ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص410، رقم 926، و أبا عبد الله محمد بن عبد الله الصقلي، روى عن أبي الحسن اللخمي الفقيه كتاب التبصرة في الفقه، وقدم غرناطة وسُلب في طريقها، وأخذ الناس عنه بها، توفى بها سنة 508هـ، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص572، رقم1328

54- ابن خلدون تاريخ ابن خلدون المسمى العبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت، 1399هـ/1989م، ج6، ص226

55- محمد بن محمد مخلوف:شجرة النور، ص140

56- ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص435

57- أبو عبد الله المازري محمد بن علي بن عمر التميمي[536هـ/1141م]، أنظر ترجمته في:ابن فرحون: الديباج المذهب، ص374-375، ومحمد بن محمد مخلوف:شجرة نور، ص127-128.

58- الزركشي:تاريخ الدولتين، ص4، ومحمد بن محمد مخلوف:شجرة النور، ص140

أما أهل الأندلس فلم يكتفوا بمجرد بالرحلة إلى قرطبة، بل استقر الكثير منهم فيها، وتولى بعض الخطط بها، نذكر منهم أبا جعفر بن الدجن أحمد بن الحصين العقيلي[471-542هـ][59] جياني سكن غرناطة ثم استقر بقرطبة، طلب العلم وهو ابن 13سنة، رحل إلى قرطبة، وروى عن أبي الحسن ابن الباذش[60] وابن فرج ابن الطلاع وأبي علي الغساني وأبي مروان بن سراج، وسمع بها من أبي محمد بن عتاب صحيح البخاري سنة 499هـ[61]، وكذلك أبا الحسن بن غالب علي بن خلف[484-568هـ] شلبي استوطن قرطبة ثم قصر كتامة تلا على أبوي داود: ابن أيوب وابن يحي، وسمع الحديث على أبي القاسم بن رضا، وأبوي جعفر: ابن عبد العزيز والبطروجي،... وكان في فتائه إذ رحل إلى قرطبة قد استكتبه الحاج بلكاس اللمتوني، ثم تخلى عنه زهدا، وتصدق بما ملكته يمينه أجمع، وطاف البلاد في لقاء العلماء والزهاد، وانقطع معهم، وألزم نفسه من أنواع المجاهدات كثيرا، لما كانت فتنة الأندلس، ثم فارق الأندلس بعد تردده في كثير من بلادها حتى استوطن قصر كتامة وطاف البلاد في لقاء العلماء والزهاد، وانقطع معهم، وألزم نفسه من أنواع المجاهدات كثيرا، لما كانت فتنة الأندلس، ثم فارق الأندلس بعد تردده في كثير من بلادها حتى استوطن قصر كتامة[62].

59- أبو جعفر بن الدجن أحمد بن الحصين العقيلي[471-542هـ]جياني سكن قرطبة، ...أخذ عن الأصبغ بن عيسى بن سهل كتابه في نوازل الأحكام مناولة، ولقي بإشبيلية أبي القاسم الهوزني، فسمع منه سنة 512هـ، ...وأكثر عنه، سكن غرناطة وأفتى بها، ثم انتقل إلى قرطبة فكان بها في عداد المفتين، شور بغرناطة ثم بقرطبة، وخرج منها في فتنة أبي جعفر بن حمدين، ابن الأبار: التكملة، ج1، ص53، وابن عبد الملك:الذيل والتكملة، ص97-99

60- أبو الحسن بن الباذش علي بن أحمد[444-528هـ]من قرطبة، إمام الفريضة بجامع قرطبة ، وشيخ شيوخها، أخذ عن أبي علي الصدفي وغيره، وعنه ابنه أحمد والقاضي عياض وعبد الحق بن عطية وأبو عبد الله الأنصاري وغيرهم، كان من أهل المعرفة بالآداب واللغات، وكان من الحفاظ لكتاب سبويه المبرزين في النظر في معانيه، له شرح على كتاب سيبويه، وشرح المقضب والأصول لابن سراج، وشرح الإيضاح والجمل، والكافي لابن النحاس، أخذه عنه أبا محمد ابن عطية مناولة من يده إلى يدي، قال قرأته على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن حارث بن أحمد بن منوه السرقسطي...، فهرس ابن عطية، ص101-106، الصلة،ج2، ص404-405، شجرة النور، ص131، ابن فرحون:الديباج المذهب، ص299-300، رقم396

61- فهرس ابن عطية، ص101-106، وكتاب الصلة،ج2، ص404-405

62- أبو الحسن بن غالب علي بن خلف بن غالب [484-568هـ] شلبي استوطن قرطبة، ...كما روى عن أبي الحسن وليد بن موفق، وأبي عبد الله بن معمر، وتلا عليه بحرف نافع، وأبي محمد النفزي المرسي، وأبي مروان بن مسرة، وأخذ فرائض المواريث والحساب عن أبي العباس بن عثمان الشلبي،... وصار إمام الصوفية وقدوتهم، يقصدون إليه ويهتدون بآثاره ويقتبسون من أنواره، وكان ممكنا في علوم القرآن، وله في طرقة التصوف مصنفات لا نظير لها منها:[كتاب اليقين]وكان له حظا وافرا من الأدب وقرض الشعر، الذيل والتكملة، السفر5، القسم1، ص108-110

كما استوطنها كذلك أبو عبد الله الألبيري محمد ابن خلف ابن موسى الأوسي الأنصاري المتكلم [457-537هـ][63]، أصله من البيرة سكن قرطبة، روى عن أبي بكر محمد ابن الحسن المرادي، وأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي وأخذ الكلام عنهما، وكان حافظا لكتب الأصول والاعتقادات، واقفا على مذهب أبي الحسن الأشعري وأصحابه، روى عن أبي الوليد بن موسى ابن الطلاع، وأبي علي الغساني وغيرهما، وذكر أن له رواية عن أبو زيد بن نزار الشاطبي أخذ عنه بقرطبة سنة506هـ، وروى عن أبي بكر محمد بن الحسن المرادي، وأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي وأخذ الكلام عنهما[64].

وحتى يدرك الشيخ المرادي المتكلم لابد أن يكون موجودا في قرطبة فترة دخول المرادي إليها سنة 487هـ، وخروجه منها كان على الأقل قبل سنة 489هـ، وهي السنة التي توفى فيها المرادي في الصحراء 489هـ[65]، وهو قاضيا بها، وعلى هذا تكون رحلة الألبيري سنة 487هـ، أو قبلها بقليل، وأخذ سنة 506هـ عن أبي زيد بن نزار الشاطبي[66]، ثم استقر بقرطبة وصارت له بعض الخلافات مع بعض فقهاءها[67].

كما استوطن قرطبة من أهل الأندلس معلما للقرآن بها، من تلامذة ابن رشد، الفقيه عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي [540هـ][68]، يابري الأصل سكن قرطبة تلا بالسبع على أبي القاسم بن الحصار، وروى عنه، وعن أبوي بكر: خازم وعبد الله بن طلحة وعياش بن مخراش، وأبي الحجاج بن الشمينة، وأبي الحسن العبسي، وأبي زيد بن محمد بن برّا ح، وأبي طلحة علي بن طلحة، وأبوي محمد: بن طلحة وابن عتاب، وأبي الوليد بن رشد[69].

63- أبو عبد الله الألبيري محمد ابن خلف [457-537هـ] من أهل البيرة سكن قرطبة ، وروى عنه ابن قرقول، وأبي الوليد ابن خيرة وجماعة، وأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي وأخذ الكلام عنهما، الأديب العالم المحقق، الإمام المؤلف، وكان حافظا لكتب الأصول والاعتقادات، واقفا على مذهب أبي الحسن= =الأشعري وأصحابه، مع مشاركة في الأدب له، توالبف منها: [كتاب النكت الأمالي في النقض على الغزالي]، ورسالة في الاقتصار على مذاهب الأئمة الأخيار، والبيان في حقيقة الإيمان، و[اختصر كتاب الرعاية للمحاسبي]، وكتاب مداواة العين جليل الفائدة ، التكملة،ج1، ص439-440، والديباج المذهب، 402-403، وشجرة النور، ص134

64- شجرة النور، ص134

65- ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص572

66- شجرة النور، ص134

67- ألف رسائل يرد فيها على العلماء منها رسالة في الرد على أبي الوليد بن رشد، في مسألة الإستواء الواقعة في الجزء الأول من مقدماته، ابن فرحون:الديباج المذهب، 402-403

68- عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي ت540هـ يابري الأصل سكن قرطبة، وكان معتنيا بالقرآن وتجويد حروفه، حسن الصوت متقنا أداءه ضابطا له، وأكتبه بقرطبة زمانا طويلا، وأقرأه أيضا بجامعها الأعظم، فتخرج على يده جمهور نبهائها، وكان يؤم بمسجد أم هشام ويدرس به النحو واللغة، ويجلس يوما في كل جمعة يعظ فيه الناس، الذيل والتكملة، السفر5، القسم2، ص486

69- الذيل، السفر5، القسم2، ص486

كما ووجد من أهل الأندلس من لم يكتف بالرحلة إلى قرطبة فقط بل ارتحل بعدها إلى المشرق، وخاصة بعد سنة 497هـ، مثل أبا القاسم بن جهور عيسى بن إبراهيم القيسي[527هـ][70] من أهل طلبيرة سكن شريش، روى بقرطبة عن أبي علي الغساني وأبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه، وخازم بن محمد، ورحل إلى المشرق بعد 500هـ، ودخل بغداد وناظر هنالك الفقهاء، وأخذ عن أبي بكر أحمد بن علي ابن بدْراق الخُولاني[71]، حيث لم يبقى بها حيا من شيوخ ابن رشد إلا ابن فرج ابن الطلاع [497هـ]، وأبا علي الغساني [498هـ].

وأما أهل قرطبة في هذه الفترة، فقد اكتفوا بالأخذ عن علمائها، ولم نجد للكثير منهم رحلة خارجها، إلا نادرا، وأما رحلتهم إلى المشرق فقد تناقصت وسجل انخفاضا لعدد الراحلين كلما تقدمنا في العصر المرابطي[72]، إلا أنها لم تنقطع، وخاصة ما كان منها بسبب الحج.

رابعا/عزوفه عن الحج

أ/ظروف رحلة الحج أواخر القرن 5هـ

أما عن عدم قيامه بالرحلة إلى الحج، وأداء الفريضة، على الرغم من مكانته العلمية والدينية، وإمكانية اقتداء الناس به، فإن الفترة التي بلغ فيها ابن رشد سن الارتحال[بعد 475هـ]، كانت فترة حرجة بالنسبة للأندلس، بعد الانقسام والقتال الدائر بين ملوك الطوائف من جهة، وبين زعماء حركة الاسترداد وأهل الأندلس من جهة ثانية، أما بعد فرض المرابطين للأمن بالأندلس، والوحدة السياسية بين المغرب والأندلس التي تحققت في عهدهم، فلم يتوفر جوا مناسبا للارتحال، بسبب فساد السبيل، وقد ووجد نموذج، لمن خرج مرتحلا في طريق الحج ثم رجع لهذا السبب مثل الفقيه أبا عبد الله بن العصافير محمد ابن عمر الخزرجي [410-504هـ][73]، من أهل جيان تفقه على أبي مروان بن مالك بقرطبة، كان ذا حظ من علم الأصول والأدب، قال ابن بشكوال: له رحلة إلى المشرق،

70- أبو القاسم بن جهور عيسى بن إبراهيم القيسي[527هـ]من أهل طلبيرة سكن شريش وأخذ عن أبي محمد بن طرفان والشاشي وأبي محمد بن علي الحريري البصري، صاحب المقامات فأخذها عنه...من أهل المعرفة بالآداب والشعر وهو كان الغالب عليه، وله مشاركة في الفقه والحديث وأصول الديانات...قال ابن بشكوال: قدم علينا قرطبة فأخذنا عنه، توفى بإشبيلية سنة 527هـ ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص416، رقم 946

71- ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص416

72- عمر بن حمادي: الفقهاء ، ص237

73- أبو عبد الله بن العصافير محمد ابن عمر الخزرجي410-504هـ من أهل جيان الفقيه المشاور، كان فقيها مبرزا، وكتب هنالك[بصقلية] عن الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الحق بن هارون السهمي الصقلي، ورجع إلى الأندلس، قال أبو محمد عبد الحق: لقيته في جيان، في نهوضي إلى غزوة طلبيرة سنة 503هـ، فأجاز لي جميع روايته، فهرس ابن عطية، ص137، الصلة،ج2، ص537.

لقي فيها عبد الحق ابن هارون الفقيه ولم يحج[74]، قال ابن عطية:رحل إلى المشرق شبيبته ليحج، فتعذر ذلك عليه، ورده عبد الحق من صقلية لفساد السبيل في ذلك الوقت، ولقي جلة من العلماء[75].

كما توجد حالة مماثلة غامر صاحبها في نفس الظروف، ولكن مغامرته لم تكلل بالنجاح، وهذا ما حصل للفقيه القاضي أبي بكر عتيق بن عمران الربعي السبتي[484هـ]، تولى قضاء سبتة، وارتحل إلى المشرق وأخذ على عدد من الشيوخ، وأقام هناك سنتين، ثم أخذ في العودة إلى المغرب، وبعد أن ردته الرياح إلى الإسكندرية، حيث قبض عليه أمير الجيوش بدر الجمالي[76] [ت487هـ] وقتله سنة 484هـ، لأنه وجد معه كتاب من المقتدي بأمر الله[77] إلى أمير المغرب[78].

74- الصلة،ج2، ص537

75- فهرس ابن عطية، ص137

76- بدر الجمالي: يدعى قائد الجيوش، أرميني الجنس، اشتراه جمال الدولة بن عمار وتربى عنده، استنابه الخليفة العبيدي المستنصر بمدينة صور وقيل عكا، فلما ضعف حال المستنصر واختلت دولته، استدعاه الخليفة سنة 466هـ، فركب البحر إلى القاهرة، بعد الحصار الذي فرضه ابن حمدان على مصر، فضعف المستنصر عن مقاومته وانحصر بالقاهرة، وطال الحصار وغلت الأسعار، فاستولى على الأمور، وقتل جماعة ممن يطلب الفساد، فتمهدت الأمور ولم يبق للمستنصر أمر ولا نهي، إلا الركوب في العيدين وصار المستنصر كالمحجور عليه مع بدر الجمالي، المتوفى سنة 488هـ، ثم من بعده ولده الأفضل شاهنشاه، ابن خلكان:وفيات الأعيان، ج2، ص448، رقم286، وابن ثغرى بردي جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي:النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، تح:إبراهيم علي طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، بلا:تا، ج5، ص04، 15،19، وقد وصفت فترة حصار القاهرة بأنعت الأوصاف :...أقامت الناس سبع سنين يطلع النيل فيها وينزل، ولا يوجد من يزرع، لموت الناس، واختلاف الولاة والرعية، فاستولى الخراب على كل البلاد ومات أهلها، وانقطعت السبل برا وبحرا، وكان معظم الغلاء سنة 463هـ، المصدر نفسه، نفس الجزء، ص3

77- المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم[467-487هـ]، وولد سنة 442هـ، بعد وفاة أبيه في خلافة القائم، وبويه له بالخلافة عند موت جده وله تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة وافرة بخلاف من تقدمه، نفى المغنيات والخواطي ببغداد، وأمر أن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، وخرب أبراج الحمام صيانة لحرم الناس، خطب له بدمشق سنة 468هـ، وأبطل الأذان بحي على خير العمل، وفي سنة 479هـ قطعت خطبة العبيدي بالحرمين وخط للمقتدي ، وفي سنة 479هـ،أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي يطلب أن يسلطنه وأن يقلده ما بيده من البلاد، فبعث إليه الخلع والأعلام والتقليد، ففرح بذلك وسر به فقهاء المغرب، جلال الدين عبد الرحمن [911هـ/1505م]:تاريخ الخلفاء، دار الفكر بيروت،1424/ 2004م، ص390-391

78- عمر بن حمادي: الفقهاء في عصر المرابطين، ص144

وكان وراء ذلك ولاشك العداء بين المذهب السني المالكي المرابطي، والمذهب الشيعي المجسد والمتحكم بأجهزته السياسية والعسكرية في مصر، بالإضافة إلى سبب خاص يتمثل في الكراهية التي كان يبديها بدر الجمالي إلى المغاربة بصفة عامة[79].

وقد أبرز ابن الأثير العداء المستحكم بين المذهبين والذي أن يؤدي إلى انقطاع الرحلة إلى المشرق عبر مصر الفاطمية خصوصا، لأن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح، فكانوا إ'ذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر-والد الأفضل-أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه ولا قاربوه، فأمر بقتل من ظفر به منهم[80].

ونقل القاضي عياض محاربتهم للمذهب في مصر ذاتها فقال: قال القنازعي:دخلت مسجد عمرو بالفوسطاط، وفيه من المجالس المالكية في الفقه والحديث نحو من عشرين حلقة...ونقل عن حمزة الكناني سنة 408هـ، أنه قال:سيمر بك ستون سنة إن عشت ولست ترى في هذا الجامع من ينصر سنة رسول الله-ص-[81].

ب/الرحلات التي وقعت في نفس الفترة

ولكن هذه الأسباب التي أقنعت ابن رشد، وجعلته لا يرتحل عن وطنه في طلب العلم، ولم يؤدي فريضة الحج، لا تبدوا مقنعة لوحدها، وذلك لوجود رحلات وقعت في نفس الفترة، أو بعدها بسنة على الأقل، ارتحل أصحابها في طلب العلم وأدوا فريضة الحج، كرحلة أبا بكر غالب بن عبد الرحمان بن عطية[82] [441-518هـ] من أهل غرناطة، رحل إلى المشرق سنة 469هـ، فلقي بالمرية أبا محمد ابن قحافة-رضه-وناظر عليه في الموطأ، وحمل عنه البخاري وسائر رواياته،...ثم رحل إلى مصر، فصحب هنالك الشيخ أبا الفضل عبد الله بن حسن

79- عمر بن حمادي: الفقهاء، ص144

80- ابن الأثير أبو الحسن على بن محمد [630هـ/1232م]: الكامل في التاريخ، بيروت،1966 ج5، ص414

81- ابن عاشور محمد الطاهر: أليس الصبح بقريب[التعليم العربي الإسلامي]، دار السلام القاهرة، ط2، 1428هـ/2007م، ص56

82- أبو بكر غالب بن عبد الرحمان بن عطية 441-518هـ من أهل غرناطة، قرأ القرآن بالقراءات السبع على الشيخ المقرئ أبي علي الحسين بن عبيد الله الحضرمي وأجازه، ناظر في الموطأ والمدونة، واكتسب حظا وافرا من النحو والأدب،... ورحل إلى مكة ...فصحب بها الفقيه الإمام أبا عبد الله محمد ابن عبد الله ابن أحمد النحوي الجاحظ المجاور بمكة، ولازمه وقرأ عليه التمهيد للقاضي أبي بكر بن الطيب، واللامع لأذري، وكتاب البيان في تفسير القرآن، وحدث به عنه، ولقي بمكة أبا عبد الله الحسين بن علي الطبري نزيل مكة، قرأ عليه البخاري، وكتاب مسلم وحمل عنه سائر روايته، ثم حج سنة 470هـ، وانحدر إلى الأندلس سنة 471هـ، توفى سنة 518هـ، فهرست ابن عطية، ص59-77، كتاب لصلة،ج2، ص432 -433 رقم:986،وابن الأبار: التكملة،ج2، ص916، و ابن القطان أبو محمد علي بن محمد بن عبد الملك بن يحي الكتامي[646هـ/1248م]: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي المكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،جمادى الآخرة 1410هـ/ يناير 1990م، ص 143، شجرة النور، ص129

المعروف بابن الجوهري القرافي الزاهد–رحمه الله–ولازمه، وحدث بكثير من أخباره وكثير من أشعار الزهد عنه، ثم رحل إلى مكة،... فصحب بها الفقيه الإمام أبا عبد الله محمد ابن عبد الله ابن أحمد النحوي الجاحظ المجاور بمكة، ولازمه وقرأ عليه التمهيد للقاضي أبي بكر بن الطيب، واللامع لأذري قراءة فك، وحمل عنه كتابه الذي ألفه في اختصار كتاب أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري، وهو كتاب البيان في تفسير القرآن، وحدث به عنه، ولقي بمكة أيضا الإمام الزكي العدل أبا عبد الله الحسين بن علي الطبري نزيل مكة، قرأ عليه البخاري، وكتاب مسلم وحمل عنه سائر روايته، ثم حج سنة 470هـ، وانحدر إلى الأندلس سنة 471هـ[83]، وقد بلغ سنه عندما ارتحل 28سنة، ولما حج بلغ سنه 29سنة، وهو أكبر من ابن رشد بتسع سنوات.

ورحلة أبا بكر الطرطوشي محمد بن الوليد[84] [521]، رحل إلى المشرق سنة 476هـ/ 1083م وحج ودخل بغداد والبصرة، فتفقه عند أبي بكر الشاشي، وأبي العباس الجرجاني، وسمع بالبصرة من أبي علي التستري، وسكن الشام مدة ودرس بها[85].

ورحلة الفقيه المحدث أبا علي بن سكرة الصدفي حسين بن محمد بن فيرة[86] [452-514هـ]

من أهل سرقسطة استوطن مرسية ورحل إلى المشرق عام 481هـ، في البحر وحج من عامه، ولقي بمكة أبي عبد الله الحسين ابن الطبري إمام الحرمين، وأبي بكر الطرطوشي وغيرهما، ثم صار إلى البصرة فلقي بها أبي يعلى المالكي، وأبي العباس الجرجاني، وأبي القاسم ابن شعبة وغيرهم، وخرج إلى بغداد فسمع بواسط من أبي المعالي محمد بن عبد السلام الأصبهاني وغيره، ودخل بغداد سنة 482هـ، فأطال بها الإقامة خمس سنين كاملة، وسمع بها من أبي الفضل أحمد بن الحسين بن خيرون مسند بغداد، وأبي الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي، وأبي محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي، وأبي الفوارس طراد بن محمد الزينبي، وأبي عبد الله الحميدي، وتفقه عند الفقيه أبي بكر الشاشي وغيره، ثم رحل عنها سنة 487هـ، فسمع بدمشق من أبي الفتح نصر بن إبراهيم

83- فهرست ابن عطية، ص59-77

84- أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد بن أبي وندقة الطرطوشي [521] من طرطوشة، يعرف بابن أبي وندقة، صحب القاضي أبا الوليد الباجي بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجاز له، وسكن الشام مدة ودرس بها، توفى بالإسكندرية سنة 521هـ، ابن عطية:فهرس ابن عطية، ص99 الصلة،ج2، ص545، رقم:1269

85- ابن عطية:فهرس ابن عطية، ص99 الصلة،ج2، ص545، رقم:1269

86- أبو علي بن سكرة الصدفي حسين بن محمد بن فيرة[452-514هـ] من أهل سرقسطة استوطن مرسية ، روى بسرقسطة عن أبي الوليد سليمان ابن خلف الباجي، وأبي محمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل وغيرهما، وسمع ببلنسية من أبي العباس العذري، وسمع بالمرية من: أبي عبد الله ابن سعدون القروي، وأبي عبد الله بن المرابط، ورحل إلى المشرق عام 481هـ، في البحر وحج من عامه،... ووصل إلى الأندلس سنة 490هـ، وقصد مرسية فاستوطنها وقعد يحدث الناس بجامعها، ورحل الناس من البلدان إليه، وكثر سماعهم عليه، كان عالما بالحديث وطرقه وعلله وأسماء رجاله، حافظا لمصنفاته ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها: [صحيح البخاري في سفر]و[صحيح مسلم في سفر]و[كان قائما على الكتابين مع مصنف أبي عيسى الترمذي]استقضي بمرسية ثم استعفي سنة507هـ، وأقبل على نشر العلم وبثه، ذكر: أبو إسحاق بن الفاسي إبراهيم بن أحمد اللواتي[ت513هـ] أنه سمع من أبي علي عند إجازته البحر من سبتة إلى الأندلس في صدره عن المشرق صدر سنة 490 هـ، استشهد في وقعة قندة بثغر الأندلس سنة 514هـ، فهرس ابن عطية، ص99الصلة،ج1، ص143 شجرة النور، ص 128

المقديسي، وأبي الفرج سهل بن بشر الإسفراييني وغيرهما، وسمع بمصر من القاضي أبي الحسن علي بن الحسين الخلعي، وأبي العباس أحمد بن إبراهيم الرازي، وأجاز له بها أبو إسحاق الحبال مسند مصر في وقته ومكثرها، وسمع بالإسكندرية من: أبي القاسم مهدي بن يونس الوراق، ومن أبي القاسم شعيب بن سعيد وغيرهما، ووصل إلى الأندلس سنة 490هـ، وقصد مرسية فاستوطنها[87]، فيكون عمره عندما ارتحل وحج 29 سنة، وهو الذي يفترض أن تكون رحلة ابن رشد رفقته، لأنه الأقرب منه ميلادا، والأنسب سنا للرحلة، لأنه يكون قد بلغ 31سنة.

ورحلة أبا بكر ابن العربي محمد بن عبد الله بن محمد المعافري[88] [468-543هـ]من إشبيلية، رحل مع أبيه إلى المشرق سنة485هـ، ولقي بالمهدية أبي الحسن بن الحداد الخولاني المهدوي؛ قال ابن العربي:كنت أحضر عليه كتابه المسمى بالإشارة وشرحها وغيرها من تآليفه، والإمام المازري، ومهديا الوراق، وأنه دخل الشام ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي وتفقه عنده ، ولقي بها جماعة من العلماء والمحدثين، ودخل بغداد وسمع بها من أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي، وابن الشريف أبي الفوارس طراد بن محمد الزيبقي، وابن أبي بكر بن طرخان وغيرهم كثير، ثم رحل إلى الحجاز فحج في موسم 489هـ، وسمع بمكة من أبي علي الحسين ابن علي الطبري وغيره، ثم عاد إلى بغداد ثانية وصحب بها أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الطوسي وغيرهما من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم وتفقه عندهم، وسمع العلم منهم، ثم صدر عن بغداد ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم، ثم عاد إلى الأندلس سنة493هـ، وقدم بلده إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق[89]، كانت رحلته رفقة أبيه وعمره 16سنة، وعندما حج بلغ سنه 20سنة، أما أباه أبا محمد عبد الله بن محمد بن العربي[435-493هـ][90]، فيكون عمره عندما خرج مرتحلا حوالي خمسون [50]سنة[91]، وعندما حج يكون قد بلغ 54سنة.

87- فهرس ابن عطية، ص99الصلة،ج1، ص143 شجرة النور، ص 128

88- أبو بكر ابن العربي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري[468-543هـ]، أنظر الإحالة رقم:34

89- ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، رقم1297، ص558-559، المغرب،ص254، وفيات الأعيان،ج4، ص296، ومحمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، رقم408، ص136

90- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري[435-493هـ]، من أهل إشبيلية، ورحل إلى المشرق مع ابنه أبي بكر في صدر سنة 485هـ، وحج وسمع بالشام والعراق والحجاز ومصر من شيوخ عدة، وشارك ابنه في السماع هنالك، وكتب بخطه علما كثيرا رواه، توفى منصرفا عن المشرق بمصر في محرم سنة 493هـ، ومولده سنة 435هـ، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص278-279، رقم:634، الضبي : بغية الملتمس، ص292، رقم 891.

91- واضح أن هذا السن متأخر جدا، وأن سن ابنه أبا بكر متقدم جدا عن سن الرحلة في طلب العلم، مما يفسر بأن الرحلة كانت لأغراض أخرى، وقد تكون مهمة سياسية، وخاصة استعجالهما دخول بغداد قبل الحج، إذ أن مبعوث المرابطين إلى الخلافة العباسية قد قبض عليه وقتل بمصر كما تقدم سنة 484هـ، فيمكن أن تكون المهمة نفسها التي كلف بها وفد رسمي يقوده الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي[435-493هـ]، عمر بن حمادي:الفقهاء، ص143.

ورحلة أبا الحسن عباد ابن سرحان الشاطبي[92] [464-543هـ] من أهل شاطبة، روى ببلده قديما عن أبي الحسن طاهر بن مفوز وغيره ، ورحل إلى المشرق وحج ولقي بمكة أبا عبد الله الحسين بن علي الطبري وسمع منه، ودخل بغداد وسمع بها من أبي الحسن المبارك بن عبد الجبار الصيرفي[93]، يكتشف تتلمذه عن الغزالي، من خلال تلميذه ابن خير محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوني[502-575هـ][94] الذي أخذ عنه مؤلفات الغزالي، ونجد بن سرحان ببغداد بين سنة[488- 493هـ][95]، وكان مولده سنة 464هـ، وتوفي بالعدوة سنة 543هـ[96]، فتكون رحلته قد وقعت سنة 488هـ أو قبلها بقليل، فيكون عمره عندما ارتحل حوالي أربعة وعشرين [24]سنة.

ج/استمرار الرحلات على رأس القرن 6هـ

أما على رأس القرن السادس فنجد قرطبيا رحل إلى المشرق وهو أبا الحسن بن حنين علي بن أحمد الكناني[97] [477-569هـ] قرطبي استوطن فاس، روى بقرطبة عن أبي بكر خازم، وأبي الحسن العبسي، وتلا بالسبع عليه، وأبي عبد الله بن فرج، وأبي عمران النسيم، وأبوي القاسم: ابن الحصار وابن مدير وتلا عليه، وبها وبجيان عن أبي عامر محمد بن حبيب، وبالمرية عن أبي الأصبغ عبد العزيز بن شفيع، وأبي بكر بن المفرج، وبها أوبغيرها من بلاد الأندلس عن أبي القاسم خلف بن محمد بن عقال، ثم رحل فحج ثلاثة حجات، أولاهن في موسم500هـ، وروى في وجهته بقلعة حماد عن أبي بكر عتيق بن محمد الرداني، وبالمهدية عن أبي القاسم بن الفحام، وبأطرابلس عن عبد المجيد بن محفوظ، وبالإسكندرية عن أبي علي الحسن بن البلميمة، وبمصر عن أبي الفضل سلامة بن أبي عبد الله القضاعي، وحيدرة بن علي العسقلاني، وأبي علي عثمان بن الطيب الغرمي، وبإخميم عن أبي محمد عبد القوي

92- أبو الحسن عباد ابن سرحان الشاطبي 464-543هـ من أهل شاطبة، أسمع بقرطبة، سكن العدوة روى ببلده قديما عن أبي الحسن طاهر بن مفوز وغيره ، ورحل إلى المشرق وحج ولقي بمكة أبا عبد الله الحسين بن علي الطبري وسمع منه، ودخل بغداد وسمع بها من أبي الحسن المبارك بن عبد الجبار الصيرفي، يكتشف تتلمذه عن الغزالي من خلال تلميذه ابن خير الذي أخذ عنه مؤلفات الغزالي، ونجد ابن سرحان ببغداد بين سنة[488- 493هـ] وكان مولده سنة 464هـ، وتوفي بالعدوة سنة 543هـ. الصلة،ج2، ص428،رقم972، فهرس ابن خير، ص184،122،446.

93- الصلة،ج2، ص428، فهرس ابن خير، ص184،122،446.

94- أبو بكر ابن خير الإشبيلي محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوني [502-575هـ/....-1179م]من أهل إشبيلية، - مولى إبراهيم بن محمد بن يَعْمور اللمتوني-قال ابن الأبار: أخذ القراءات عن أبى الحسن شريح بن محمد ولازمه واختص به إلى حين وفاته، وعنده برع في الإقراء، وعليه عوَّل، وسمع بقرطبة من أبى جعفر بن عبد العزيز، التكملة، طبعة دار الفكر بيروت، 1995،ج2، 49-50، رقم132، والطبعة الأخرى، ج2، ص523-525، شجرة النور، ص152

95- عمر بن حمادي: الفقهاء ص566

96- الصلة،ج2، ص428، فهرس ابن خير، ص184،122،446

97- أبو الحسن بن حنين علي بن أحمد الكناني 477-569هـ قرطبة استوطن فاس، سمي ابن حنين لتجديده مسجدا منسوبا لابن حنين والتزامه الإمامة به والتدريس فيه، ثم رحل فحج ثلاثة حجات، أولاهن في موسم500هـ، ... وجال في بلاد العراق والحجاز، والشام ومصر،...ولقيه في تجواله أعلاما كبراء لم يعن بالأخذ عنهم، إذ لم يكن له كبير اهتبال بشأن الرواية، وأقام ببيت المقدس تسعة أشهر، يعلم فيها القرآن، ثم قفل إلى المغرب فلقي بتلمسين ...، الذيل،السفر5، القسم1، ص150

بن محمد الجنجالي، وصحبه مسافرا في مركب منها إلى قوص، وبمكة، عن أبي الحسن رزين بن معاوية، وصحبه مدة مقامه بها، وابن العرجاء أبوعلي الحسن بن عبد الله بن عمر القيرواني، وأبي منصور منتان بن خرزاد، الهمذاني مصنف[قصة يوسف]قال وكنت أكتب إليه وقت تأليفه إياه بإملائه، أو أمسك عليه المسودة ويكتب، وصحب بها الإمام أبا حامد الغزالي وسمع منه أكثر الموطأ رواية ابن بكير، وجملة من فوائده ودعا له، فأجيبت دعوته، وجال في بلاد العراق والحجاز، والشام ومصر،...وأقام بسيرفاز شريعة بيت المقدس تسعة أشهر، يعلم فيها القرآن، ثم قفل إلى المغرب فلقي بتلمسين أبا بحر الأسدي، وروى عنه،... ثم ورد مدينة فاس سنة 503هـ، وعمره 28سنة[98]، فيكون عمره لما ارتحل ثلاثة وعشرين [23]سنة، ومكث في رحلته ثلاث سنوات يحج كل سنة.

ورحلة أبا القاسم بن جهور عيسى بن إبراهيم القيسي[527هـ][99]من أهل طلبيرة سكن شريش، رحل إلى المشرق بعد 500هـ، ودخل بغداد وناظر هنالك الفقهاء، وأخذ عن أبي بكر أحمد بن علي ابن بدْراق الخُولاني، وأبي بكر محمد بن طرخان والشاشي، وأبي محمد بن علي الحريري البصري، صاحب المقامات فأخذها عنه[100]، ولم تذكر المصادر بأنه أدى فريضة الحج، وكذلك قصد الشام ابن نادر الميروقي أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر[101] [523هـ] من ميروقة رحل إلى المشرق ودخل دمشق سنة505هـ، من فقهاء المالكية الذين أحكموا الفروع، وتمكنوا كثيرا من علم الخلاف، سكن الإسكندرية وتوفى بها سنة 523هـ، وصارت الرحلة إليه هناك[102].

أما الفترة التي استعفي فيها من القضاء سنة خمس عشرة [515هـ]إثر الهيج الكائن بها من العامة وأعفي[103]، فقد وقعت فيها ثلاث رحلات، منها رحلة أبا بكر بن السراج محمد ابن عبد الملك الشنتريني[ت545][104]، سكن إشبيلية، رحل إلى المشرق سنة515هـ، فنزل مصر وأقرأ بها وحدث، وانتقل في وقت إلى اليمن[105]، وبعدها بقليل كانت رحلة أبا جعفر وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عميرة[470-577هـ][106] بلسّي من عمل لورقة، رحل إلى مرسية سنة513هـ، فأخذ بها عن أبي علي بن سكرة ولازمه إلى أن استشهد، وأبي محمد بن أبي جعفر، ورحل إلى قرطبة سنة515هـ، فلقي بها أبا عبد الله بن عبد العزيز بن أبي الخير، وأبا محمد بن عتاب، وأبا الوليد

98- الذيل،السفر5، القسم1، ص150

99- أنظر الإحالة رقم 106

100- ابن بشكوال:كتاب الصلة، ج2، ص416

101- ابن نادر الميروقي أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر[523هـ] من ميروقة ،من فقهاء المالكية الذين أحكموا الفروع، وتمكنوا كثيرا من علم الخلاف، سكن الإسكندرية وتوفى بها سنة 523هـ، عمر بن حمادي: الفقاء، ص505

102- المصدر نفسه، نفس الصفحة

103- ابن فرحون الديباج المذهب، ص344

104- أبو بكر بن السراج محمد بن عبد الملك الشنتريني[ت545] ، شنترين سكن إشبيلية، راجع الإحالة رقم:66، التكملة،ج2، ص472

105- التكملة،ج2، ص472

106- أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عميرة[470-577هـ] بلسّي من عمل لورقة قفل إلى بلده، وقد نال قسطا وافرا من العلم فتصدر للإقراء وإسماع الحديث، كان أديبا إماما في الزهد والتصوف، توفى سنة577هـ، وناهز المائة الذيل، السفر1، القسم1، ص264-265

بن رشد، فقرأ عليهم مدة، ثم رحل إلى مالقة، فتلا فيها بالسبع على أبي منصور بن الخير وأجاز له، وقفل إلى بلده، وقد نال قسطا وافرا من العلم، ثم رحل إلى المشرق فأدي فريضة الحج وعاد إلى بلده، حيث أخذ في رحلته هاته عن ابن رشد بعد اعتزاله القضاء، ثم رحل حاجا فقط، ولم يذكر أنه أخذ في رحلته عن أحد من علماء المشرق[107]، فهاتين الرحلتين وقعتا بالتأكيد بعد سنة 515هـ.

ويقابلها الجزء المتبقى من حياة ابن رشد بعد تفرغه من سنة 515 إلى 519هـ، فإنه اشتغل بالتعليم والتأليف خصوصا، وتوفرت له فرصة الخروج من قرطبة لكنه توقف بمراكش ولم يحج قال النباهي:تقلد قضاء قرطبة ثم استعفي وتفرغ لنشر كتبه، وقيل أن علي بن يوسف[476-537هـ] عزله لأنه اشتغل عن لقائه بتأليف كتاب البيان والتحصيل، وولي مكانه أبو جعفر بن حمدين، وفي سنة 519هـ جاز إلى مراكش، وأشار على أمير المسلمين ببناء سور مراكش لتحصينها، لما ظهر أمر المهدي[108].

وهناك رحلة ثالثة من الأندلس، لتلميذ آخر من تلامذته، وقصد الإسكندرية إلى ابن نادر الميروقي أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر [523هـ]، قام بها الفقيه أبا عبد الله محمد ابن يوسف ابن سعادة المرسي[109] [496-565هـ] من أهل مرسية، سكن شاطبة رحل إلى المشرق سنة 520هـ، فلقي بالإسكندرية أبا الحجاج بن نادر الميورقي وصحبه وسمع منه وأخذ عنه الفقه والكلام، وأدى فريضة الحج سنة 521هـ، ولقي بمكة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدري إمام المالكية بها، وأبا محمد بن صدقة المعروف بابن غزال، من أصحاب كريمة المروزية، فسمع منهما، وأخذ عنهما، وروى عن أبي الحسن علي بن سند بن عيّاش الغساني [ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصنيفه]ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية[110].

107- الذيل، السفر1، القسم1، ص264-265

108- تاريخ قضاة الأندلس، ص99

109- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة المرسي[496-565هـ] من أهل مرسية، سكن شاطبة ...ولقي أبا الطاهر بن عوف، وأبا عبد الله بن مسلم القرشي، وأبا طاهر السلفي، وأبا زكرياء الزناتي وغيرهم، فأخذ عنهم، ولقي في صدره بالمهدية أبا عبد الله المازري، فسمع منه بعض كتابه المعلم وأجاز له باقيه، و عاد إلى مرسية سنة 526هـ، كان مشاركا في علم القرآن وتفسيره حافظا للفروع، بصيرا باللغة والغريب، ذا حظ في علم الكلام مائلا إلى التصوف، وولى خطة الشورى بمرسية مضافة إلى الخطبة بجامعها، أخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه، ثم ولى القضاء بها بعد انقضاء دولة الملثمة، ونقل إلى قضاء شاطبة، فاتخذها وطنا، وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية، ويقيم الخطب أيام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبا عليها، [ألف كتاب ضجرة الوهم المترقية إلى ذروة الفهم] لم يسبق إلى مثله، وليس له غيره و[جمع فهرسة حافلة]روى عنه، وذكره ابن عياد ووصفه بالتفنن في المعارف، والرسوخ في الفقه وأصوله، والمشاركة في علم الحديث والأدب،...ذو حظ من علم الكلام، توفي بشاطبة مصروفا عن قضائها في من سنة 566هـ، ومولده بمرسية سنة 496هـ، التكملة،ج2، ص505-507، شجرة النور، ص149

110- التكملة،ج2، ص505-507، شجرة النور، ص149

وسنة 520هـ، هي السنة التي توفى فيها ابن رشد، ولم تنقطع الرحلة من الأندلس إلى المشرق والمغرب والمغرب، طيلة حياة ابن رشد.

أما الفترة الأخيرة من حياته منذ تخليه عن القضاء سنة 515هـ، فقد قصد به التفرغ للتعليم (استعفي وأكب على التأليف)[111]، ولكن خروجه إلى مراكش بعد استفحال ثورة المصامدة دليل على انشغاله بأمور أهم، وهي مصير دولة الفقهاء والقضاة، أمام خطر المصامدة الداهم.

ومن خلال هاته الرحلات التي كانت على رأس القرن السادس الهجري، والتي لم تثر اهتمام ابن رشد للقيام بفريضة الحج، تكون فرصته في الرحلة وآداء الفريضة قد فاتت، فهل بعد إثباث الرحلات التي وقعت منذ أن بلغ سن الرحلة، بناء على الرحلات التي وقعت في سن بلوغه، وهي تنحصر بين [23إلى 29 سنة] ، إذا استثنينا رحلة ابن عربي الذي أخذه معه والده في مهام أخرى وعمره ستة عشر[16] سنة، وأبيه كان سنه خمسون[50] سنة[112].

فهذه الرحلات كلها تجعل من ابن رشد غير معذور في عدم القيام بالرحلة إلى الحج، إذا قبل عذره في عدم القيام بالرحلة في طلب العلم، إلا أن يكون موقف ابن رشد مخالفا ومغايرا لآراء الكثير من الفقهاء، وخاصة الذين عرضوا حياتهم للخطر، رغم فساد السبيل، وغامروا وتجشموا الصعاب في سبيل زيارة بيت الله الحرام وأداء الفريضة، وعددهم ليس باليسير، واستقل هو ومن كان على رأيه، بأن الفريضة تسقط بفساد السبيل[113].

خاتمة

-ابن رشد الجد شخصية ذات مكانة علمية ودينية وسياسية، ويحظى بمكانة مرموقة في الأندلس رغم عدم قيامه بالرحلة في طلب العلم والحج – وتعتبر نقيصة في عهده – .

-برزت إلى الوجود أوضاع في الأندلس ربما أثرت على الرحلة الأندلسية، وعطلت الكثير من طلبة العلم والحجاج على الارتحال

111- الحجوي:الفكر السامي، ص553

112- وقد عرفنا أن لهما مهمة أخرى خرج من أجلها، وقد تكون الرحلة العلمية مجرد تلبيس وغطاء فقط، وربما مزيدا في أخذ الحيطة والحذر، فلم يقتل ولكنه مات في نفس المكان الذي قتل فيه مبعوث المرابطين إلى الخليفة العباسي، ولكننا وجدنا رحلة تقارب سنه وقعت لأبي عبد الله محمد بن الحسن بن عمر بن سعيد المقرئ [472-547هـ]من أهل دانية، رحل حاجا منها يوم الإثنين 9جمادى الثانية سنة 527هـ، وأدى الفريضة وسمع من أبي طاهر السلفي، ثم قفل راجعا إلى بلده فدخله ليلة عيد الأضحى سنة 530هـ، بعد إقامته في رحلته ثلاث سنوات، وتصدر للإقراء وإسماع الحديث وتعليم العربية، فيكون عمره عندما قام بالرحلة حوالي خمسة وخمسون[55]سنة، الذيل،السفر5، القسم1، ص150

113- فمن شروط الاستطاعة عند ابن رشد، الأمن على النفس والمال، من محارب غاصب لا سارق، لمال له بال، بالنسبة للمأخوذ منه، فقد يكون الدينار له بال بالنسبة لشخص،ولا بال له بالنسبة لآخر، إلا أن يقل المال المأخوذ، بأن كان لا يضر بصاحبه، فلا يسقط الحج بخوف أخذه عند ابن رشد، وهو المعول عليه، إلا أن ينكث ظالم، أي يرجع لأخذ ثانيا بعد الأول، فإن خيف منه ذلك سقط وجوبه باتفاق ابن رشد وغيره، وإن قل المجموع، فإذا أمن على نفسه وجب الحج،أحمد الدردير:الشرح الضغير، وزرارة الشؤون الدينية الجزائر، 1413هـ/1992م، ج2، ص6-7

-كما أن الأوضاع في المشرق بعد سيطرة العبيديين على مصر عقدت الأوضاع هناك، وساهمت في محاولة الحد من الرحلة أو التخفيف منها

- لقد ظهرت قرطبة كمركز علمي استقطب العلماء المرتحلين إلى المشرق، ووفرت لهم أسباب الاستقرار، مما جعلها تستقطب أنظار طلبة العلم في تلك الفترة فحجوا إليها من المشرق والمغرب.

-لقد تأثرت الرحلة إلى الحج بنفس الأوضاع، مما أدى إلى زهد الكثير من كبار علماء الأندلس في الرحلة إلى الحج، واقتنعوا بسقوط فرضيته بسبب فساد السبيل، مما حرم الكثير منهم من الزيارة وأداء الواجب.